المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المـجلـد 14 -- العدد 02 -- ديسمبر 2022 ص 70 - 90

الجزائر في كتابات الفرنسيين قبل الاحتلال (1830م)

French writings before the occupation of Algeria (1830)

دراعو محمد - باحث دكتورالي (pctowntlm@gmail.com)	تاريخ الجزائر المعاصر	جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان/ الجزائر
معمر لعايب - أستاذ التعليم العالي (mamar.laib@univ-tlemcen.dz)	تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر	جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان / الجزائر

DOI :

الإرسال: 2022/10/25 **القبول**: 2022/12/13 **النشر**: 2022/12/22

ملخص:

تقدم هذه الدراسة أبرز المحاور التي تناولتها كتابات الفرنسيين قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سواء تلك التي كتبها القناصل أو مجموعة من المؤرخين، وكذا تقارير الجواسيس الأوربيين الذين أرسلوا إلى الجزائر، والتي أصبحت محل اهتماماتهم خصوصا بعد بروز مظاهر الضعف والتدهور للحياة السياسية والاجتماعية لإيالة الجزائر في العقدين الأول والثاني من القرن 19م، وتراجع قوة الجزائر العسكرية البرية والبحرية وتنامي الأطماع الفرنسية في احتلال الجزائر بوضع خطط ومشاريع غزو والتحريض على الاحتلال.

كلمات مفتاحية: كتابات الفرنسيين؛ مشاريع الاحتلال الفرنسي؛ المجتمع الجزائري؛ الحكم العثماني؛ إيالة الجزائر.

Abstract:

This study presents the most prominent topics addressed by the French writings before the French occupation of Algeria, whether those written by the consuls or a group of historians, and even the reports of European spies who were sent to Algeria, which became the subject of their concerns, especially after the emergence of weakness and deterioration in the political and social life of the Regency of Algeria in the first and the second decades of the 19th century, and the decline of Algeria's land and sea power military as well as the growing of French ambitions in occupying Algeria by drawing up plans and projects of invasion and incitement to occupation.

Keywords: French writings; French occupation projects; Algerian society; Ottoman governance; Regency of Algeria.

المؤلف المراسل: دراعو محمد **البريد الإلكتروني**: pctowntlm@gmail.com

مقدمة:

شكّل موضوع: "**الجزائر في كتابات الفرنسيين قبل الاحتلال عام 1830م**" محور اهتمام الباحثين الجزائريين والأجانب، فمن أبرز الدراسات الجزائرية التي اهتمت بدراسة هذا الموضوع نذكر: أبو القاسم سعد الله في كتابه: "تاريخ الجزائر الثقافي" خصص عنصرا للجزائر في الكتابات الفرنسية حيث كتب يقول: "...الفرنسيون لم يكتشفوا الجزائر سنة 1830، فقد كتبوا عنها قبل ذلك في عدة مناسبات. وكانت بينها وبينهم معاهدات، وتبادل أسرى، وجوسسة، وتقارير قناصل، ورحلات. ولكن معظمها كانت علاقات من جانب واحد. فالفرنسيون هم الذين كانوا يكتبون (عدا المعاهدات)، أما الجزائريون فلا يكادون يتركون أثرا لأسراهم ولا لرحلاتهم، وليس لهم قناصل في فرنسا، وقلما تطلق فرنسا أسراهم ليقصوا ما حدث لهم. فالكتابات الجزائرية عن فرنسا تكاد تكون معدومة قبل 1830 بينما كتابات الفرنسيين عن الجزائر متوفرة". (سعد الله، 2009، صفحة 379) وكتاب الأستاذ كمال بن صحراوي والموسوم بـ: "محطات من تاريخ الجزائر من خلال الأرشيف والكتابات الفرنسية" والصادر عن دار نشر مكتبة نور 26 ماي عام 2017م. والدراسة النقدية القيمة التي نشرها الباحث أحمد عبيد في مجلة إنسانيات، العدد 57 سنة 2010 والتي تناول فيها موضوع: "التأريخ الجزائري: تقييم ونقد – حالة الجزائر العثمانية". وما كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية يمكن التوقف عند الكتاب القيم في جزأين للأستاذ منور مروش دراسات عن الجزائر في العهد العثماني"، حيث يتناول جزؤها الأول "العملة، الأسعار والمداخيل" وجزؤها الثاني "القرصنة، الأساطير والواقع". ومن المقالات التي تناولت هذا الموضوع على قلتها نذكر مقال الأستاذ أحمد سعودي حول: "التاريخ الوطني الجزائري من منظور بعض الكتابات الأجنبية الفرنسية أنموذجا" المنشور في مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 13 العدد 1 والصادرة عن جامعة زيان عاشور.

لم يكن التواجد الفرنسي بالجزائر مرتبط بتاريخ الاحتلال الفرنسي عام 1830 م، فجذوره تعود إلى بداية العهد العثماني بالجزائر مطلع القرن السادس عشر ميلادي، فالفرنسيون وجدوا في القوة الإسلامية الصاعدة آنذاك -الخلافة العثمانية- الداعم لهم من تغول الإسبان باعتبارهم القوة المهيمنة للحلف الصليبي آنذاك، وتجارة المشرق التي كانت بأيدي الايطاليين لم تستطع فرنسا انتزاعها منهم أو حتى مشاركتهم فيها، هذه

الحقيقة لم تكن بعيدة عن ذهن الوزير المفوض لا فورست la Forest الذي استطاع انتزاع بند بموجبه: **"لا يمكن لأية سفينة مسيحية الرسو على سواحل الإمبراطورية العثمانية إلا تحت حماية الأسطول الفرنسي"**. فكسبت حماية سياسية على عرشها من الطموح الإسباني، فضلا عن مكاسب اقتصادية كممثل للأمم المسيحية لدى الباب العالي وبالتالي مزاحمة الدور الإيطالي على التجارة العالمية. (بوعزيز، 2009، الصفحات 41-42)

هذا الوضع المستجد الذي أصبحت على إثره الجزائر قوة بحرية واقتصادية وجهة أمامية للأسطول العثماني في غرب المتوسط، جعل فرنسا تعمل على تشبيك علاقاتها مع الجزائر بداية بالتعاون العسكري، إلى المبادلات التجارية، فاستثمارات وامتيازات اقتصادية حصرية فسحت لها المجال لاستغلال بعض المراكز الساحلية الجزائرية. لتتوج بتمثيل دبلوماسي حصري لكل الأمم المسيحية التي ليس لها ممثل بالجزائر، وعميد جميع القناصل الأجنبية بالجزائر.(De Tassy, 1724, p. 286)

في ظل هذه العلاقات المميزة تناوب على الجزائر 96 محافظا ومبعوثا فرنسيا بدءا بلا فورست la Forest سنة 1534 إلى دوبري Du Perré سنة 1830، 60 قنصلا ونائب قنصل أولهم بارتول Bartholle سنة 1564 وآخرهم بيير دوفال Pierre Duval سنة 1827م، أثمرت جهودهم بعقد 58 اتفاقية أبرمتها فرنسا مع الجزائر، تنوعت ما بين اتفاقات تجارية وامتيازات وصلح وقروض بملايين الفرنكات إلى آخر اتفاقية في 5 جويلية 1830 والتي عرفت بمعاهدة الاستسلام والاحتلال. (بوعزيز، 2009، الصفحات 156-166) فهذا التشابك الأفقي والعمودي لمصالح الطرفين تناولته كتابات فرنسية عديدة تمحورت في مجملها حول الموضوعات التالية:

1 -المجتمع والسلطة في إيالة الجزائر:

إن الأوروبيين عموما في هذه الفترة سواء اتحدت مصالحهم أو تفرقت فإنهم يجمعون على عدائهم للدولة العثمانية عموما وللجزائر خصوصا بحكم قوتها البحرية المهابة في غربي البحر المتوسط، حيث تلتقي وتستقي كتابات الفرنسيين مع ومن كتابات سابقة لهايدو Haëdo ودي تاسي de Tassy على ضعف المجتمع العربي عموما. فهايدو كان من الأوائل الذين بنو كتاباتهم على الحط من قيمة الإنسان المسلم العربي على العموم والجزائري بالخصوص، بوصفه بأقذع الأوصاف ظلت إلى عهد الاحتلال ملازمة له في أغلب

كتاباتهم مثل الوحشية، لا رحمة، عدم الإنسانية.(Haëdo, 1911, pp. 131-139) مما يعطي مبرراً استعمال القوة المفرطة ضده لحتمية إخضاعه.

أما دي تاسي فقد تناول الموضوع بشكل مغاير حيث تعرض مثلا لمصطلح البربر والبربرية، (Barbares ou Barbaresques, Barbarie) الذي ألصق بهذه القطعة من إفريقيا والتي ظلت في المفهوم -الأوروبي-توصف بكل ما هو وحشي، جور، ضد كل الشرائع وضد الطبيعة، يوردها ضمن الأحكام المسبقة لأغلب المسيحيين والتي تكون قاسية اتجاه الأتراك والمسلمين عموما.(De Tassy, 1724, p. 9) ثم نجد راينال Raynal يعطي في مدخل كتابه المبرر لهذا الاسم "Etats barbaresques" كون هذا الجزء من شمال إفريقيا القريب من أوروبا فقدت مجدها وتقهقرت إلى "دولة بربرية" وهي تستحق هذا الاسم، وأن تاريخها القديم ما هو إلا سلسلة طويلة من المآسي أرهقت كاهل شعوب المنطقة لفترة طويلة، يعطي لها وصف قبائل متنقلة، متوحشة، بربرية، لا تقاليد تحكمها ولا تاريخ، عبارة عن أمة ناشئة أو في طور النشوء "Monde presque naissant".(Raynal, 1826, pp. 27-32)

ويعلق دارفيو d'Arvieux على المواقف الصريحة والصارمة للداي والديوان على نسق: متوحشون تمتلكهم نزوة غضب شديدة، أو على شاكلة ماذا تنتظر من أناس برابرة مثل الجزائريين؟ وكثيرا ما يبحثون عن مشكل أو سوء تفاهم لإعلان الحرب، عطفا على عديد الرسائل المتبادلة بين الداي والملك الفرنسي، بخصوص تبيان بعض نقاط الخلاف مست بنود الاتفاق.(D'Arvieux, 1735, pp. 117,176-177,192)

أما رونودوت Renaudot فيختم موجزه التاريخي بتساؤل عن هذا الشعب الذي عرف بشجاعته وبطولته وبأسه شديد في مواجهة الرومان، كيف وصل إلى هذه الحالة من الضعف والهوان والخضوع لسيطرة الأتراك وحرم من استغلال كنوز بلاده؟ ليعلل ذلك بأن سكان الجزائر يجهلون تاريخ بلادهم وأجدادهم. (Renaudot, 1830, p. 56) وفي وصف السكان يعيد رونودوت نفس المساوئ التي عدّدها هايدو في كتابه بإعادتها نصا وحرفا "الكبر، الرغبة، الطمع تحديدا، الشراهة، النرفزة والعصبية، الكسل والعطالة" (Haëdo, Topographie et histoire générale d'Alger, 1870, pp. 168-180) ليضيف ليس لهم تربية ولا أخلاق ولا ضمير، فخرهم واعتزازهم ناتج عن تعصب وتزمت"Fanatisme".

(Renaudot, 1830, pp. 81-82) كما أن راينال نعت الجيوش المسلمة بالمتعصبة، ويختزل كل الشريعة الإسلامية في الختان وتعدد الزوجات، لكنه يذكر أنهم لم يحولوا بعض الكنائس لمساجد ولم يلتفتوا إلى الآثار الرومانية ولم يخربوها كما فعل الوندال (Raynal, 1826, pp. 58,60). بوتان Boutin يذكر أن وباء الطاعون يحصد أرواح الجزائريين على فترات مثل أوروبا فإنهم ينظرون إليه على أنه قضاء وقدر، ويستسلمون لهذه المشيئة وتعصبهم يجعلهم يقطعون كل اتصال مع العالم الخارجي. (Boutin, 1830, p. 123)

وتجد رونودوت يصف الإنسان بالمتوحش الهمجي لا يهتم إلا بنفسه ومصالحه وغرائزه، فهو يحب (الأب، الأم، الأخت، الأخ) ما داموا له عونا، وفي غير ذلك فهم إلى النسيان أقرب،(Renaudot, 1830, p. 89) ويستعين بمرويات شفوية ونوادر الحكايات "Anecdotes" أو "historiettes" لا يستطيع أحد تتبعها ولا التأكد منها، هذا فضلا عن تعميمها. ويعيد نفس الفكرة التي أقرها دي تاسي من قبل، منطق غريب أن تجد حفنة من الأجانب تحكم شعبا كاملا، ومستبعدا من كل وظائف الدولة، وإن كان دي تاسي تجاوز الأمر مستفسرا عنه حين ذكره كونهم يعيشون في صراعات بينهم ولا تجمعهم أية صلة لذا تجدهم تحت سيطرة الأتراك رغم قلة عددهم.(De Tassy, 1724, p. 273) إلا أن رونودوت يصدر حكما قاسيا حيث يقول: "... **لما تعرف هذا الشعب عن قرب يذهب الاستغراب، تقهقر هذه الأمة الجبانة التي ليس لها من الشجاعة أن تسيطر على بعض الجنود الأتراك، أو على الأقل تتقاسم معهم حكم البلد، في حين الإجابة أو بعضا منها ذكرها بنفسه الأتراك استطاعوا جذب السكان إلى صفهم كونهم مسلمين، والجزائريون لم يجدوا غضاضة في الانقياد لهم...**".(Renaudot, 1830, pp. 169-170) لكن الأتراك أصلوا لقطيعة بينهم وبين الأهالي الجزائريين في تسيير الحكم، فلم ينعم به حتّى موالهم من "الكراغلة" طيلة وجودهم، وما ثورات (1638-1639) وما موقف السّلطة من الأهالي بإبعادهم عن مقرّها (دار السلطان) ودفعهم إلى الإقامة بالجهات، إلاّ دليل عن مدى انغلاق هذه السلطة على نفسها. (عبيد، 2010، صفحة 7)

فانتور Venture يلتقي مع سابقيه في ضعف مجتمع المور"Maure" (المجتمع الجزائري) الذي حسبه تتحكم فيه بعض العادات الخرافية كالاعتقاد في الجن والحيوانات وتستحوذ عليه الجهالة والشعوذة والسحر،(Venture de Paradis, 1898, p. 137) وحاول

أن يبرز التقارب بين حكومة مالطا والجزائر لخصه في النقاط التالية: نظام مالطا لا يفدي الأسرى وكذلك حكومة الجزائر، حاكم مالطا ينتخب من طرف الفرسان ويصبح حاكم البلاد ونفس الأمر لداي الجزائر، سيطرت الروح الدينية الصليبية على فرسان مالطا والعقيدة الإسلامية هي المحرك الأساسي ليولداش الجزائر، حاكم مالطا يمارس سيادة دينية وعسكرية إزاء السكان والفرسان، وداي الجزائر يمارس سيادة دينية باسم خليفة المسلمين "الباب العالي" وكذلك كقائد أعلى لإنكشارية. (Venture de Paradis, 1898, pp. 142-145)

وترصد هذه الكتابات النظام الاقتصادي والإداري المطبق في إيالة الجزائر، فحسب رونودوت النظام الضريبي المطبق في الإيالة قاهر ويمس جميع مناحي الحياة، فالدولة تمتص شعبها بالضغط والتهديد بالقوة، وعصره كالإسفنج، فالداي ممثلا للسلطة العليا يلزم باقي موظفي الدولة بتحصيل الضرائب كل في نطاق حدود صلاحياته، (Renaudot, 1830, pp. 211-212)لدرجة أن أحد الدايات وهو يخاطب دبلوماسي فرنسي بقوله **"مهنتي أن آخذ وليس أن أعطي..."**، فهدفهم كان الاستبداد بالسلطة وجمع الأموال، وليس الرقي والازدهار، (غربي و آخرون، 2007، صفحة 21) فدارفيو يشير أن الأتراك عمدوا إلى جعل هذا الشعب والثراء لا يلتقيان، وجعل الجزائري يفكر في العيش ليومه فقط دون أن يشغل باله بمستقبله، فباقي فئات الشعب لا يعتبرهم الأتراك إلا مطية لحكمهم. (D'Arvieux, 1735, p. 290) إذ يمكن تشبيه ثروات البلاد ومن دون مبالغة، بقطعة حلوى، يأخذ منها كل موظّف حسب ما يخوّله له منصبه. (بن أشنهو، 2013، صفحة 36)

في حين سجل فانتور ملاحظاته حول التنظيم الإداري المطبق في الجزائر وقال عنه: بأنه يجعل من المقاطعات الإدارية للبلد ليست قائمة على تنظيم إداري محض بل على ما تدفعه كل جهة من أموال ومنتجات وكذلك الهدايا والأعطيات، ويصف قيمة الضرائب المدفوعة بغير المحددة وبغير الموحدة وبها تضارب كبير في نسبها. وقد يكون ذلك راجع إلى النظام الجمركي الجزائري الذي لم يكن صارما في تطبيق التعريفات الجمركية على السلع، فمثلا الأراضي المحروثة بالثيران تفرض عليها نسبة5%,10%,15%. (Venture de Paradis, 1898, pp. 40,154-168) وقد استغل الأجانب هذا الخلل، إذ تجد الشركة الإفريقية تدفع

رشاوي للموظفين الأتراك بالشرق الجزائري لتسهيل عملياتها التجارية، وهكذا تركت مقاليد الدولة لمجموعة من الضباط والموظفين والإقطاعيين تنهب خيراتها، (غربي و آخرون، 2007، صفحة 22) في حين ينتظم السكان الأغنياء عادة ضمن طبقة الصبايحية من أجل الحفاظ على مصالحهم وحماية أملاكهم، بالمقابل الأتراك لا تفرض عليهم ضرائب.(Venture de Paradis, 1898, p. 168) ويرى فانتور بأنه لا توجد حكومة في المعمورة تكتنز المال العام مثل حكومة الجزائر ويسير بطريقة غريبة، إذ لا يصرف منه إلا النزر القليل من المصاريف، على العموم سياسة الحكومة اتجاه العرب (الجزائريين) كانت جد قاسية وصارمة. (Venture de Paradis, 1898, pp. 94,128,132,134)

فحياة السكان بسيطة أقرب إلى التقشف (الخيام والترحال)، التناحر والخصام لدرجة من النادر أن تجد عشيرتين على رأس جبلين متجاورين في سلام ووفاق، تحكمه الخرافة والأسطورة بوضع التمائم وتقديم الذبائح، فقدوا روح دينهم وتعلقوا بالشعائر الظاهرية،(Raynal, 1826, pp. 87-106) يعيشون في بساطة شديدة إلى درجة التخلف، ويشترك عموم السكان في كثير من العادات والتقاليد المتوارثة منذ ثلاثة ألاف سنة دون تغيير. (Boutin, 1830, pp. 143-148)

يخلص راينال إلى أنه نتج عن هذه السياسة انقلاب في المفاهيم أدى إلى عزلة تامة وتراجع عام للمجتمع، حيث أصبح منتهى طموح السكان تعلم القراءة والكتابة تحت متلازمة الاضطهاد والانحطاط رضخ فيها المجتمع، مقابل متلازمة السيطرة والثراء التي جبل عليها الأتراك وما عداها يقابل بازدراء وعدم اكتراث، وأن المستوى المادي والمعنوي تدهور كثيرا في مختلف أنحاء البلاد،(Raynal, 1826, pp. 111,115) فالمسلمون أهملوا منذ زمن، عدة فنون مثل (الحسابات، الهندسة، علم الفلك، الموسيقى، البلاغة، الفلسفة، وعدة صنوف من علوم الميكانيكا أو ما تعرف بالعلوم التطبيقية أو التجريبية)، ليعلق عليها بوتان أن حياة الترحال للعرب، وطريقة حكم الأتراك لهم لا تسمح بخلق بيئة علمية، (Boutin, 1830, p. 179) ويروي وليام شالر في مذكراته أن البايات وحكام الأقاليم يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الشعب وهذا الظلم الذي لا يطاق جعل الناس يهجرون البلد ويتركون السهول الخصبة، فلجأوا إلى الجبال وأطراف الصحراء حيث لا سبيل لوصول الأتراك وأعوانهم إليها. (شالر، 1982، صفحة 59) فالأتراك لم يبذلوا جهدا

في تطوير علاقتهم مع الجزائريين سوى في جانبها المالي وركزوا طوال فترتهم على تطوير الجهاز الضريبي وتخصيص مصادر هذا الجهاز للمحافظة على الأمن والاستقرار، وضمان مصالح وامتيازات الفئة الحاكمة. (غربي و آخرون، 2007، صفحة 29) ويشير روني قاليسو René Gallissot إلى الخلاصة التالية: "قبل 1830، كانت هناك "جزائريّتان"، واحدة خارجية، موجّهة نحو البحر ولها تمثيل دولي، وأخرى داخلية، برية، تعيش منغلقة على نفسها. (عبيد، 2010، صفحة 10)

بالرغم من كل هذه الأحكام والأوصاف التي أطلقها الكتاب الفرنسيون في وصفهم للأتراك وللمجتمع الجزائري خلال هذه الفترة، إلا أن بعض الكتاب كانت لهم مواقف مغايرة عن المجتمع الجزائري، فهذا مثلا جوزيف مورقان صاحب كتاب الكامل في تاريخ الجزائر سنة 1731م، ينتقد هايدو ومن سار على دربه، بأنهم كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني، وأنهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين بأقوال الكهنة الإسبان ودعاياتهم المغرضة والذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكي يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين. (سعد اللة، 2016، صفحة 316) لكن لو أنهم خالطوهم وانسجموا معهم دون معرفة أنهم مسلمون على الأقل في المظهر الخارجي (عدم لبس العمامة، يلبسوا مما يلبس كثير من النصارى) لوجدوهم لا يختلفون عن شعوب العالم. (De Tassy, 1724, p. 10)

2 -الجزائر المستثمرة الفلاحية الكبيرة والقطب التجاري العالمي:

لم تخل كتابات الفرنسيين من الإسهاب في تشريح هذين المعطيين الأساسيين القائم عليهما الاقتصاد الجزائري وفي مقدمتها الفلاحة وما كانت توفره للسوق المحلية والدولية من مختلف السلع المعاشية والمواد الأولية التي تدخل في عدة صناعات ساهمت في تنشيط التجارة مع مختلف الأمم الأوربية والمشرقية. حسب رونودوت، الإنسان المتأمل لهذه الإيالة يأخذه الفضول والذهول في آن واحد. سهول شاسعة تقطعها وديان توفر وضعية حسنة لجميع الكائنات (النباتية والحيوانية)، السلاسل الجبلية خصبة للزراعة من سفحها إلى قمتها مقارنة بجبال فرنسا التي تبقى قفرا طوال السنة، أرض تنتج كل شيء لو كانت بأيدي تحسن استغلالها. في حين في وصف الأرياف يعطي نفس الصورة التي ذكرها **هايدو ودي تاسي**، فيصفها بالحدائق الغناء، ويذكر خصوبتها وانتاجها الغزير. رغم الأساليب والوسائل البدائية لخدمة الأرض، الموروثة منذ القدم. في حين أنه أعجب بنظام تخزين الحبوب ووصفه بالفريد من نوعه، مشيرا إلى المطامير التي تهيأ تحت الأرض على شكل حفرة مع فتحة صغيرة تسد بالطين تضمن سلامة الحبوب وعدم فساده لمدة تقارب العشرون سنة.(Renaudot, 1830, pp. 72,188,191)

فالجزائر تنتج تقريبا جميع أنواع الغلال بأوروبا، لكن رغم سخائها فإن ثلثي الأراضي غير مستصلحة "بور".(Boutin, 1830, pp. 105,171) ونجد راينال يتفق مع كتاب آخرين على عطاء هذه الأرض الفلاحية خصوصا القمح وكل أنواع الخضروات فضلا عن تربية الأغنام والأبقار، ويخص بالذكر الإبل فهي عطاء رباني حبا الله بها هذه البلاد –يحمل 6-7 قناطر ويسير 24 ساعة مع ساعة واحدة من الراحة فقط- ولولاها لبقيت صحراء خالية وفقدت شمال إفريقيا كثيرا من قيمتها. ويعيد ما أجمع عليه باقي الكتاب في سرد ثروات البلاد الزراعية والحيوانية، مع معطيين أساسين، الوفرة والثمن الجيد، خلقا تجارة معتبرة مع أوروبا والفرنسيين بالخصوص جعلت من مرسيليا مركز ا تجاريا عالميا. (Raynal, 1826, pp. 75-86,213-226)

مثلت الجزائر قطبا تجاريا بامتياز فكل الموانئ العالمية كانت تتعامل مع الجزائر وحجم السلع وتنوعها التي كانت تحكم التجارة العالمية في ذلك الوقت إلا وللجزائر فيها نصيب. فالموانئ العالمية توفر (الحديد، الرصاص، النحاس، البارود، الأغطية، الملح،

نسيج، اللؤلؤ، الذهب، الفضة، التوابل)، وموانئ الجزائر تصدر (القمح والشعير، الأبقار، الجمال، الأغنام، الصوف، الزيوت، السمن، الجلود المصبوغة، غنائم البحر، تجارة الرقيق).(Haëdo, Topographie et histoire générale d'Alger, 1870, pp. 90-92) فذكرت الكتابات قوائم طويلة من السلع المصدرة والمستوردة نوعا وكما، تؤكد أن البلد بدون شك مستودع السلع بين إفريقيا وأوروبا وكانت من أكثر البلدان ازدهارا في العالم. (Renaudot, 1830, p. 220) فنجد مثلا سنة 1787 صدرت الشركة الإفريقية لوحدها من عنابة ما يقارب 25 ألف قنطار من الصوف. وفي السنة الموالية خرجت من موانئ عنابة، الجزائر، أرزيو (ميناء معسكر)، دلس حوالي 150 ألف حمولة من القمح وبإذن خاص من الداي.(Venture de Paradis, 1898, p. 27) وتجد فائض إنتاجها الزراعي كان يقتطع من أفواه منتجيه الأصليين دون أن يعود عليهم بفائدة، الأمر الذي تولّدت عنه حركة الانتفاضات الريفية، لقد كان هذا الفائض حكرا على الحكّام الأتراك يتصرّفون في تحديد سعره ومبيعاته ويمنحونه امتيازات لليهود والشركات الفرنسية بالأخصّ. (عبيد، 2010، الصفحات 7-8) فالدولة تحتكر التصدير، خصوصا المواد المعاشية " Tout objet de bouche" فتشتريها عن طريق وكلاء من السكان وتعيد طرحها في السوق عادة بضعف ثمنها، ولا تحمل على السفن إلا بإذن مسبق من الداي.(Venture de Paradis, 1898, pp. 21-24,41)

ويتقن الجزائريين عدة حرف مثل صاغة الذهب، الخياطين، الطرازين، نحاتين الحجارة، الحدادين...الخ، ولهم مهارة كبيرة في الجلد المصبوغ -دباغة الجلود، ولهم ذوق كبير في الطرز ويتفننوا فيه، وتخرج هذه المنسوجات من أيدي نساء ماكثات بالبيت يحكن بأيديهن كل خيط، فتجد من أفخمها نسيج الحرير المطرز بخيوط الذهب والفضة "Brocards d'or et d'argent" مطلوب لدى الإيطاليين وبسعر مرتفع. (Boutin, 1830, pp. 175-176)

3 -التحريض على غزو الجزائر في كتابات الفرنسيين:

أجمعت هذه الكتابات على أطماع استعمارية جلية برصد خطط حربية لغزو الجزائر، فدارفيو بعد مغادرته الجزائر كانت له جلسات ونقاشات مع كثير من السفراء

والأمراء للأمم المسيحية واصل فيها عمله التحريضي ضد الجزائر، فقد وافق ذلك أن أمير البرتغال ريجونت Régent يريد أن يقود حملة ضد الأسطول الجزائري فالتمس من دارفيو مذكرات عن الآليات الواجب استعمالها ضدهم،(D'Arvieux, 1735, p. 372) فرسم له خطة قوامها عمارة بحرية رأس حربتها السفن الحارقة "brûlot" التي يتم إدخالها تحت جنح الليل إلى ميناء الجزائر على دفعات بحيث إذا أغرقت بطاريات المدافع بعضها، تستطيع الأخرى الوصول إلى هدفها بالاقتراب أكثر من السفن المكدسة بالميناء ,Renaudot, 1830) (p. d'acceuilوتنفجر عليها وتنشب النار فيها، ويصاحب ذلك قنبلة المدينة والتحصينات بكثافة ودون انقطاع لتشتيت انتباه القوات المدافعة، وتأمين عبور السفن الحارقة لتقوم بمهمتها الأساسية حرق الأسطول الراسي بالميناء. ويوصي أن ينتقى طاقم السفن الحارقة من الرجال الأقوياء، مؤمنين بقضيتنا، لا يهابون الموت، فعادة هذه السفن لا تعود لمهمتها الانتحارية.(D'Arvieux, 1735, p. 376)

دارفيو أحكم خطته لدرجة أخد العبيد المسيحيين بالحسبان لو سارت بعناية ستكون أكبر عملية خلاص لم تنجز من قبل، وأن الخلاف والتناحر بين أعضاء الديوان لا يلبث أن يصل إلى رأس الداي نفسه، ليضيف أن العرب ليسوا على وفاق تام مع الأتراك وقد يجدونها فرصة سانحة للانتفاض عليهم. ليستدرك أن حماستهم الدينية قد تمنعهم من ذلك، لكن على أمل أن يحدث ذلك، ستساهم ثورتهم في اندثار دولتهم. ,D'Arvieux) (1735, pp. 378,380

رونودوت زايد على زميله دارفيو ضد الشعب الجزائري وبلده، كونها أولى الكتابات التي حرضت ضد الجزائر صراحة وبكل قسوة قبل الاحتلال. يخلص إلى النتيجة الرومانية القديمة "Delenda Carthago" أي يجب القضاء على قرطاج، كناية على أن يجب تدمير الجزائر من أجل أمان أوروبا كما تم سحق قرطاج من أجل أمان روما، وقطع جذورها من المجتمع الدولي، ومن تعداد العائلة الكبيرة لشعوب العالم.(Renaudot, 1830, p. Xl) فهو يوصي بأنه لا يكتب لهجوم بحري النجاح كون تحصينات المدينة قوية وبحكم حوض الجزائر معرض لرياح قوية وأن أحسن فترات الإنزال على الساحل الإفريقي هي جوان وجويلية، وأن المدينة لا تأخذ إلا من الجهة البرية بالضبط ناحية برج الإمبراطور. (Renaudot, 1830, pp. 73,75)

رونودوت يقدم خطة تفصيلية لغزو الجزائر تضطلع بها فرنسا، فيعتبر أن رغم أمنياته الصادقة لخير البشرية جمعاء فهو يستثني منها الجزائر، ويرى أن تكون هناك نظرة حادة وموقف صلب بإزاحة هذا العبء عن العالم أجمع بالقضاء على الجزائر، ويعدل بوصلة الأمم المسيحية (فرنسا، انجلترا، اسبانيا) بالبحث عن الثروات في أقاصي الدنيا بأمريكا في حين أمام أعينها وأقرب إليها أقاليم تكون منطلقا لتوسعها التجاري والفلاحي. (Renaudot, 1830, p. 237) لكنه يستدرك أن اسبانيا لها مبدأ التصفية التامة للشعوب ونفيهم كما فعلت في الأمريكيتين فتتحول معها البلد إلى صحراء قاحلة " لذا يجب صرف النظر عن هذه الصورة القاتمة لهذه الحكومة الإسبانية المتعصبة الدموية. (Renaudot, 1830, p. 238)

رونودوت لا يجعل الغزو منحصرا على مدينة الجزائر فقط، بل حملة شاملة على كل البلد، وتكون بخطوات جريئة وعلى وجه السرعة وقيادة ماهرة ومحنكة لإخضاع جميع سكان المملكة بحيث لا يكون أمامهم خيار سوى الانصياع لهم، ومع الزمن عليهم تبني الحضارة الأوروبية أو سحقهم كالحيوانات المتوحشة. ليخلص أن الاجتياح قد يفشل إذا اكتفي بالعاصمة أو بعض الأقاليم بل يجب أن يشمل كامل البلاد. (Renaudot, 1830, pp. 239-240)

لكن مخرجات هذه الحضارة لدى رونودوت هو ما توفره هذه البلاد من خيرات تغني أوروبا عن البحث عنها في أمريكا وبأسعار مرتفعة، ويضطلع الكولون "Colons" بخدمتها وزراعتها، وتكون خزينة الداي غنيمة كافية لتغطية نفقات الحرب. فهنا بلد رائع وثروات كبيرة يجب غزوه وأتمنى أن يكون هذا الإنجاز العظيم من نصيب فرنسا، فاحملوا سلاحكم واستأصلوا شأفتهم.(Renaudot, 1830, pp. 242-243)

فانتور يختم ملاحظاته هو كذلك على منوال قرينه رونودوت ومن قبله دارفيو في وضع لمسات أخيرة لخطة غزو الجزائر يستقيها من مذكرات أسير اسباني بقي لفترة طويلة بالجزائر قدمها إلى بلاده بتاريخ 15 جوان 1754 ويعقب عليها، من حيث تعداد الجيش فيحصره حسب الأسير الإسباني ما بين 11-12 ألف في حين يقدره ما بين 7-8 ألاف رجل وقد يكون أقل من ذلك بكثير بعد وباء الطاعون الذي ضرب البلد سنة 1785، ويكون

أحسن نزول للجيش ما بين رأس كاسكين وسيدي فرج ومن هنا يمكن مباغتة الجزائر من ظهرها حيث تكون التحصينات ضعيفة.(Venture de Paradis, 1898, p. 174) وقد تكون كتابات رونودوت وفانتور من أولى الكتابات التي رصدت أحسن نقاط نزول الحملات الأوروبية على الجزائر.

راينال يخرج بتوصية على شاكلة سابقيه رغم أن الفرنسيين كسبوا حماية سياسية لعرشهم ومكاسب اقتصادية بالدخول تحت ظل العثمانيين، يستحضر مجموعة من المذكرات لسفراء فرنسيين بالمشرق ضاربة في القدم رسمت مخططات للهجوم على الجزائر والقضاء على العثمانيين قدمت للملك الفرنسي منذ 1666م، ولتنفيذ هذا المشروع على أمراء المسيحية بتشكيل حلف دولي على شاكلة الحلف الصليبي الأول، لا يستطيع أحد التنصل منه، بل يلوم الأمم المسيحية التي تدفع للجزائر على أساس أنها تشتري حقوقها الطبيعية.(Raynal, 1826, pp. 128,138) ويعطي مقاربة على نسق رونودوت بأن أبرز الأمم البحرية الأوروبية راحوا وراء اكتشافات بعيدة جدا، وإنشاء مصالح ومنشآت اقتصادية في أقاصي الدنيا، فيوجه بوصلة الأوروبيين نحو الساحل الإفريقي الذي يقول عنه يجب أن يدخل ضمن الحيز الجغرافي الأوروبي الحيوي بل ضمن الأملاك المحفوظة لأوروبا،(Raynal, 1826, pp. 142-143) فيقترح سواء بالغزو أو تأسيس مستعمرات تحول دون نهضتها. ليعقب أن النظام الكلونيالي(مستعمرات) مازال تصورا غريبا في هذا القرن يقصد الثامن عشر-والذي سيصبح حقيقة ماثلة في القرن الموالي-، بإنشاء مستوطنات (مستعمرات فلاحية) أو شركات للمزارعين أو وكالات تجارية مع مرور الوقت تصبح أملاك تابعة للدولة الأم.(Raynal, 1826, pp. 144-145)

فمخرجات الرسالة الحضارية لدى راينال تكمن في إرسال حملات عسكرية، تقيم مستوطنات لهم، بعدها تملك أراضي شاسعة وتستحوذ على كل ثروات البلاد. فهو يريد أن يؤصل للفعل التجاري إلى الاستيطاني إلى التمليك فالاحتلال أو كيان مستقل لكن تابع للدولة الأصل. وكل الوسائل مهما كانت خسيسة جيدة لإخضاع سكان إفريقيا مثل - استحضار بنات أوروبيات لإفريقيا-، مسألة أثارت حفيظة الناشر نفسه بحيث عبر عن هذا الأمر "بأنه شيء مؤسف ومخزي أكثر من الأسر في الجزائر".(Raynal, 1826, p. 191)

بوتان عمد لإيجاد مبررات غزو الجزائر والتي ألحقها فريق إعداد المؤَلَف بالملاحق (خسارة فرنسا لامتيازاتها بالجزائر، طرد القنصل، الهجوم وتفتيش بعض السفن الفرنسية، رفع الرسوم التجارية، مسألة الديون... الخ)، تحول غزو الجزائر في أدبيات الفرنسيين إلى سيادة فرنسية وملك لفرنسا في نظرة استعمارية مبيته. (Boutin, 1830, p. 75) لذا لم يتحرج وزير خارجية فرنسا أن يصرح يوم 10 جويلية 1829 "أن الجزائر هي من أعلنت الحرب على فرنسا"، أصبحت معه القوة العسكرية هي الفيصل وما سواها ليس له اعتبار، والسؤال الذي كان يطرح على الحكومة الفرنسية ليس هل سنقوم بالحرب بل كيف نخوض الحرب؟ فالأمر حسم، وما تبقى إلا تنفيذه بكل قوة، مهما يكن من ادعاءات وأسباب ودوافع هذه الحرب فإنه يكفي يعلق الكاتب: "عندما يكون وجود الجزائر بحد ذاته ادعاء كافي ومن واجب فرنسا مباشرة انجازه".(Boutin, 1830, pp. 73-77) يكفي أن مهمة بوتان نفسها بالجزائر جاءت قبل كثير من المسوغات التي أدرجها المؤلف، بحيث كانت أنظار بونابرت لتنظيم حملة اتجاه السواحل الإفريقية لم تغادر ذهنه منذ زمن، فعمد إلى إرسال بعثات استخباراتية تعمل على جمع أكبر قدر من المعلومات لتنفيذ هذا المشروع، لكن ظروف فرنسا أرجئت هكذا مشاريع. بوتان قام سنة 1808 وفي ظرف أقل من شهرين بمسح دقيق للسواحل الجزائرية من سيدي فرج غربا إلى مصب نهر بوبارك شرقا –قرب دلس-، ومجموع الأنهار التي تصب فيه، فضلا عن تضاريسه، خلصت إلى أن الحوضين الصغيرين لرأس سيدي فرج خصوصا الغربي منه الأحسن لرسو السفن، بحيث يمكن للسفن الكبيرة الاقتراب إلى مسافة 800 متر، وأعماقه رملية وبانحدار طفيف يوفر مأوى آمن للسفن. ويعطي نوع من الكتالوج والتوصيات والإرشادات المتبعة للجيش للحفاظ على سلامته الأمنية والصحية، تتعلق بحسن اختيار مكان إقامة المعسكر والحياة اليومية للجند للتكيف مع الحرارة الشديدة وتجنبا للأمراض الفتاكة.(Boutin, 1830, pp. 116-118)

العبارة الصريحة لتوصيف هذا الغزو هو أن فرنسا إن لم تجد مبرر أو مسوغ شرعي لغزو الجزائر، لخلقت عدة مسوغات، تترجم بها نيتها المبيتة لهذا الغزو. على أساس أن الجزائر لو أقلعت عن "القرصنة" و"استرقاق الأسرى" وهو ما تراجعت عنه الجزائر كثيرا بعد 1816، كانت ستظل هدفا للغزو كون نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن

الموالي شهد تسارع محموم على التوسع الاستعماري الآخذ في التزايد ما كان ليفلت الجزائر وعموم الأقاليم التابعة للدولة العثمانية. وقد عبر عن هذا الأمر المستشار النمساوي الأمير ميترنيخ خبير السياسة الفرنسية "ليس من اجل حركة المروحة تنفق مائة مليون ويجند أربعون ألف رجل". (بن أشنهو، 2013، صفحة 7)

4 ـقوات الجزائر العسكرية البحرية والبرية

عن القوات العسكرية وتنظيماتها وتعدادها وتسليحها شرحتها هذه الكتابات، لكن أساس عظمة البحرية الجزائرية حسب فانتور قائم على استراتيجية عسكرية دعامتها، أولا: سفن شراعية جيدة تمتاز بخفة المناورة منها على المتانة، لدرجة أن المدافع مصطفة إلى جنب بعضها البعض، والتجهيزات الأخرى تبقى بسيطة إن لم نقل غير ضرورية (فلا أفرشة، لا أراجيح"Hamac" أو أسرة للبحارة)، مؤونتهم بسيطة جدا خبز الشعير، زيت، خل، زيتون وبعض الثمار الجافة. ويتساوى في ذلك الرايس وأبسط بحار. ثانيا: عدم التراجع في المواجهة بحيث تحملهم شجاعتهم أن يتزود البحارة بالأسلحة البيضاء ويتم الاستيلاء على السفن بالمواجهة المباشرة دون اللجوء إلى المدافع وإغراق السفن. ثالثا: عدم رجوع السفينة إلى الميناء خالية الوفاض وإلا اضطر العساكر لإجبار الرايس للخروج مرة أخرى.(Venture de Paradis, 1898, pp. 47-49)

يؤكد هذا الأمر دارفيو بتعداد الأسطول بحوالي ثلاثين سفينة، حملاتهم البحرية لا تكلف كثيرا، مراكب شراعية جيدة، أكثر خفة، قليل من الزاد، لا أثاث كثير، الكل يلتف برنوسه للنوم ورزمة أغراضه كوسادة. والغنائم تقسم على شكل "فريضة مواريث" أو "عقد تجاري" تضمن حق كل فرد على متن السفينة دون أن ينقص منها فلس. (D'Arvieux, 1735, pp. 271-275) ولا يزال الجيش الجزائري قائما بما تدر عليه الغنائم البحرية. وعلى الأمم المسيحية أن تتحد جميعا وبمجهود جماعي على عدم تموين الجزائر بالتجهيزات الضرورية للبحرية وقواتها العسكرية مثل الصواري، الحبال، مرساة، الأسلحة، البارود، المقذوفات، الزفت...وكل مستلزمات صناعة الأسلحة والسفن. فالأموال التي تضخها اسبانيا والبرتغال كل سنة لفدية الأسرى تكفي لتجهيز من 15-20 سفينة حربية. (D'Arvieux, 1735, pp. 272-375)

غير أن رونودوت يعطي مؤشرا مغايرا بتراجع قوة الجزائر العسكرية البحرية، ولم تعد تلك القوة المهابة في البحر المتوسط مقابل تصاعد قوة الضفة الشمالية الاقتصادية والعسكرية، وترسيمها قواعد دولية جديدة. فيقدم حصيلة جد هزيلة للترسانة البحرية مع نهاية القرن الثامن عشر للجزائر (خمسة عشرة سفينة متعددة الأحجام سنة 1779 إلى عشرة أو إحدى عشر سفينة سنة 1795). (Renaudot, 1830, pp. 229-230) وهو ما يعطي إشارة واضحة عن تراجع القوة البحرية الجزائرية. فضلا أنها لم تكن بالقوات النظامية بالمعنى الحقيقي فلا عدة ولا عتاد ولا أجور إلا مما غنمته السفينة فقط.

بوتان يعزز قول رونودوت بتراجع الجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر لقوتها العسكرية والاقتصادية ودورها الإقليمي والدولي. ففي حين تمخضت حملة اللورد اكسمونت الإلغاء المطلق لرق المسيحيين، نازعت حملة الولايات المتحدة السيادة البحرية للجزائر لدرجة أن السفير الأمريكي استغرب سرعة عقد معاهدة مع أشهر الدول مهابة، ليعقب الكاتب أن هذه الدولة المهابة لم تعد إلا عبارة عن شبح سخيف. (Boutin, 1830, p. 71)

حجم القوات العسكرية البرية المستنفرة في الحرب يتغير حسب الحرب المعلنة ويكون عادة حسب المتاح أو الدافع – بما تقدمه القبائل من عدد الفرسان-، والدافع التعصب الديني أو لأمل في غنيمة كبيرة، والجزائريون إلى هذه الفترة لا يفكرون مطلقا في جمع الذخائر والمئونة مسبقا، فكل حشد عسكري للفرق المحاربة لا يتشكل إلا ببطيء شديد وتواجهه صعوبات جمة لاستكماله وعادة ما يكون أقل من العدد المطلوب، (Boutin, 1830, pp. 196-197) وأن هذه الفرق المشكلة أو ما يعرف بالصبايحية "Spahis" ينقصها كثير من الانضباط والتزام التعليمات الصارمة مع أنها تعتبر الدعامة الأساسية لكل جيش، علاوة على تسليح القوات (الأتراك أو العرب) لا تخرج عن (بندقية، مسدسين، خنجر وسيف)، أما عن سلاح المدفعية لا يستخدمه الجزائريون إطلاقا في حروبهم البرية. (Boutin, 1830, pp. 197-198) فضلا على مهام أخرى مثل النوبات على حاميات المدن والحصون الحدودية كما يشارك في الخرجات لتحصيل الضرائب، وهي وظائف أقرب لقوات الجندرمة أكثر منه لجيوش نظامية.

5 -تحوير الكتابات لأغراض سياسية واقتصادية

كثير من كتابات الفرنسيين طرأ عليها عامل التعديل وأعيد نشر أثارهم القديمة عن الجزائر باللغة الفرنسية عشية الاحتلال بما يخدم السيطرة والاحتلال، فراينال يسرد مؤلفه في كتلة واحدة بدون عناوين رئيسية ولا فرعية، أما الفترة التي يعالجها الكاتب فتنتهي إلى سنة 1788 والتي كرسها في آخر حياته (1713-1796). في حين يقر الناشر أن هذا المؤلف أدخلت عليه إضافات تكميلية تحيينيه ولصالح موضوع البحث من طرف السيد بوشي "Peuchet" إلى فترة 1826. لكن هذا الكتاب أقحمت فيه نصوص من غير ما كتبه المؤلف الأصلي ولا تذكر أحداثا بل قراءات أغلبها تسير وفق مصالح سياسية واقتصادية لمجابهة الجزائر، وهو ما نلاحظه في الصفحات (164-185) من إدراج مداخلات السيد شاطوبريان Chateaubriand الفرنسي والسيد سيدني سميتSidney Smith الإنجليزي إلى مؤتمر فيينا في جانفي 1815 ضد الاسترقاق والقرصنة وهو الذي كان المحرض لحملة اللورد اكسمونت سنة 1816 على الجزائر وإثارة القوى الأوروبية ضدها. وفي الصفحات (194 -201) يذكر حملة نابليون بونابرت ضد مصر (1799 -1801) التي لم يعشها المؤلف كونه توفي سنة 1796.

كتاب بوتان هذا، أعاد تحريره فريق عمل بوزارة الحربية الفرنسية، مكلَّفا بجمع المعلومات الأكثر جدوى للجيش الإفريقي في حملته على الجزائر، وأعيد تنظيمه وترتيبه ضمن ثلاث محاور: تاريخي، إحصائي وطبوغرافي للفريق المشرف على العمل وقام بالتصحيحات لتتوافق بكل دقة مع مذكرات الضابط بوتان، وبعض الإضافات لتحيينها بالمعلومات الجديدة. هذه المخططات وفرت وسهلت للفرنسيين معلومات استخباراتية عن كل ما تم عرضه ومناقشته مع الحكومة الفرنسية حين أعلنت نيتها غزو الجزائر. (Boutin, 1830, pp. Vj-Vij) يكفي في الأخير أن هذا المستند هو خلاصة لمنظري وقادة الحملة العسكرية على الجزائر منه لبوتان نفسه، نسخة استند عليها لإيجاد تبريرات لحملة الغزو وصياغتها في سياق تاريخي يخدم أغراضهم الاحتلالية.

خاتمة:

في ختام هذه المساهمة، وعلى ضوء ما حملت من معلومات ذات قيمة تاريخية، نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

✓ ما يميز كتابات الأوروبيين إدخال كثير من "historiettes" وهي عبارة عن الحكايات والنوادر القصصية الخاصة والعامة، لا يمكن التثبت منها تصديقا أو تكذيبا، مثل (قيام أحد الدراويش بضرب البحر بعصاه فارتج البحر في حملة شارلكان، علاقة عروج بزوجة سليم التومي، علاقة نساء المور بالعبيد، رمي النساء المذنبات في البحر، إحراق اليهود أحياء)، فهذا الفعل الأخير يقر الجميع أنه يتم خارج أسوار المدينة جهة باب الواد (قرب مقبرة اليهود وسوق الخشب)، لكن يتم تناقله دون أن يشهده أحد ولو لمرة واحدة فلم يسجل لا هايدو، دي تاسي، دارفيو، فانتور، رونودوت ولا بوتان شاهد هذا الفعل في حين كانوا مقيمين بالجزائر لفترات متباينة وعلى امتداد الوجود العثماني بالجزائر، وتجد أقربهم للتبرير منه إلى الحقيقة يقول "حدثني من هو ثقة" هكذا وكفى.

✓ هذه الكتابات ركزت اغلبها وأجمعت أن الهجوم على الجزائر من البحر متعذر أو شبه مستحيل بحكم أن كل الحملات رغم قوتها باءت بالفشل وآخرها حملة اكسمونت في حين تبقى الجهة البرية المنفذ الأضعف لإسقاط المدينة. واصطفت أغلبها على وضع خطط عسكرية لغزو الجزائر والقضاء عليها، وجلها ختمت كتاباتها بخطط مدروسة لتنفيذ هذا الغزو وسبل إنجاحه، وحرضت ضد الجزائر صراحة وبكل قسوة قبل الاحتلال.

✓ قللت هذه الكتابات من أهمية السكان عموما في تولي شؤونها السياسية بنفسها لعدة اعتبارات منها طبيعة المجتمع نفسه، وإن كان دينه الإسلام فتحكمه كثير من الخرافات والأساطير الناتجة عن جهل وعادات مستحكمة تناقلتها الأجيال، وكذلك كونه منغلق على بيئته القبلية ترسم حدود مجاله الحيوي. ولا ترى في سكان البلد إلا خدما لهم وان غلفوها بنشر حضارتهم، وتعتبر السكان قطعة ضمن ماكينة انتاجية فقط. ولم تذكر هذه الكتابات جميعها ولا شخصية من السكان سواء اعتبارية أو علمية أو حتى من الأعيان لا تلميحا ولا تصريحا أو حتى تعريضا بنقل إحدى المرويات الشفوية عنه.

✓ رغم تلمس الاكتفاء الذاتي للسكان سواء لحاجياتهم المعاشية أو لضروريات الحياة اليومية، غير أن الحكومة لها اليد العليا في التجارة الخارجية دون أن يكون لها

دور في توفير وسائل الإنتاج، إذ تقوم بتحديد ثمن السلع خصوصا القمح وتعيد بيعه بضعف سعره.

✓ الأرقام التجارية المغربية خصوصا المتعلقة بإنتاج القمح والثروة الحيوانية الكبيرة جعلت فرنسا تغير نظرتها إلى هذا البلد كونه قرية فلاحية كبيرة، وأعطت هذه الكتابات إشارات جد مغرية لغزو هذا البلد عاجلا أم آجلا.

✓ الكتابات وان حاولت إيجاد مبرر لعذاب الأسرى المسيحيين بالجزائر غير أن أغلبها اعتدلت مع حقيقة على الأقل أنها لم تكن بحجم وبشاعة الأسر لدى الإسبان، وأن فعل الأسر والاسترقاق كظاهرة مارسته عدة شعوب قديما وحديثا اختلفت فقط في الرحمة أو قسوة معاملتهم، ففانتور ودي تاسي يؤكدان أن جحيم الأسر لدى الإسبان أضعاف مضاعفة منه لدى الجزائريين مع أن الإسبان يأسرون حتى أبناء ملتهم.

✓ قوة الجزائر البحرية لم تكن بتعداد الأسطول ولا بقوته النارية بل بجرأة وشجاعة بحارته بالاستيلاء على السفن بالأسلحة البيضاء واقتيادها ومن عليها غنيمة إلى الجزائر بحيث لم تكن لهم مصلحة ولا منفعة في إغراق السفن. لكن فارق القوة العسكرية الذي طرأ على الجيوش الأوروبية عموما والفرنسية خصوصا بعد حروب نابليون وما اكتسبته من خبرة ميدانية برية وبحرية مقابل تراجع رهيب لهذه الكفاءة الميدانية للجيش الجزائري (مثلا إدخال السفن المقنبلة والحارقة بحريا، والمناورة الميدانية بالبطاريات المدفعية المتحركة وسلاح الرشاش) كلها أضفت تفوقا استراتيجيا بحريا وبريا للقوات الأوروبية.

✓ هذه الكتابات كثير منها أقحمت فيها نصوص وإضافات كثيرة من غير ما كتبه المؤلف الأصلي وحورت خدمة لأغراض سياسية واقتصادية لمجابهة الجزائر. لدرجة تجد مستند بوتان لم يكن إلا مادة خاما لمنظري الغزو على الجزائر، وتم إعادة صياغته في سياق تاريخي يخدم أغراضهم الاحتلالية. فمثلا في مسألة المؤسسات الخيرية والوقفية "Etablissements de bienfaisance" يقول المؤلف لم يجد أي مصدر يتكلم عن هذا الأمر بل يجهل إن كانت توجد مثل هذه المؤسسات بالجزائر، لكن الأوقاف كانت أول ما حصدته حملتهم وبالتالي فتركها في عالم المجهول يخدم هذه الفكرة.

✓ مبررات الغزو الفرنسي مهما تعددت واختلفت وإن تناقضت، فعنوانها الرئيس تنافس متصاعد وصراع محموم وحتمي على التوسع الاستعماري للدول الأوروبية مع مطلع القرن التاسع عشر ما كان ليفلت الجزائر وعموم الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

قائمة المراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي. الجزائر: دار البصائر.
- أبو القاسم سعد الله. (2016). أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر (المجلد 1). الجزائر: عالم المعرفة.
- أحمد عبيد. (30 جوان, 2010). التأريخ الجزائري: تقييم ونقد -حالة الجزائر العثمانية. مجلة انسانيات، الصفحات 57-75.
- الغالي وأخرون غربي. (2007). العدوان الفرنسي على الجزائر -الخلفيات والأبعاد-. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
- عبد الحميد بن أشنهو. (2013). الدولة الجزائرية في 1830 مؤسساتها في عهد الأمير عبد القادر. (نور الدين لعراجي، المترجمون) الجزائر: موفم للنشر.
- وليام شالر. (1982). مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- يحي بوعزيز. (2009). علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830. الجزائر: دار البصائر.
- Boutin, V.-Y. (1830). Aperçu Historique Statistique et Topographique sur l'état d'Alger. Paris: Typographie de J Pinard Imprimeur du Roi.
- D'Arvieux, L. (1735). Mémoires du chevalier d'Arvieux (Vol. 5). Paris: Charles-Jean-Baptiste Libraire.

- De Tassy, L. (1724). Histoire du Royaume d'Alger. Amsterdam: Henri du Sauzet.
- Haëdo, F. (1870). Topographie et Histoire Générale d'Alger. (A. Berbrugger, & Monnereau, Trads.) Alger: Adolphe Jourdan.
- Haëdo, F. (1911). De la captivité à Alger. (Moliner-Violle, Trad.) Alger: Typographie Adolphe Jourdan.
- Raynal, G.-T. (1826). Histoire philosophique et politique des établissement et du commerce des Européens dans l"Afrique. paris: Amable coste Libraire-éditeur.
- Renaudot, M. (1830). Tableau du royaume de la ville d'Alger et de ses environs. Paris: Librairie Universelle de P. Mongie Ainé.
- Venture de Paradis, J.-M. (1898). Alger au XVIIIe siècle. Alger: Typographie Adolphe Jourdan.